دراسات وبحوث قرآنية:

الصّورة النّبويّة بين الواقع والتّشويه

كيف يقدّم التراثُ الإسلاميّ رسولَ الله ﷺ للعالَم؟

باسل الشّيخ

طالب في مرحلة الماجستير (اختصاص فقه وأصول) - جامعة المصطفى العالمية

ملخّص

يتناولُ البحث الصورة النبوية كما يعكسها التراث الإسلامي، ويبيّن احتواء التراث، على تنوّعه واختلاف كتبه وتعدّد الطوائف الإسلامية، على نماذج تعبّر عن تصوّرين مختلفين لشخصية النبي الأكرم ﷺ، ما يضع المطالع له أمام ضرورة تبنّي إحدى الصورتين ونبذ الأخرى.

يستعرض البحث نماذج تساهم في رسم كل صورة منهما، ويبيّن وجود التغاير بين التصوّرين؛ بحيث يلزم تبنّي إحداهما وتبرير النماذج الواردة في التصوّر الآخر بما لا يخلّ بالمختار، ثمّ يحاول معالجة المشكلة من خلال الاحتكام إلى العقل والأدلة القرآنية، باعتبارها أهمّ الأدلة النقلية والمرجع حين التعارض؛ ليخلُصَ إلى أنّ الصورة النبوية مشرقة لا تتحمّل نسبة النماذج السوداوية لها، وما ورد في التراث الإسلامي في هذا الإطار ينبغي نفيه وإبعاده باعتباره منافيًا لشخصية النبي وأخلاقه، أو تحديده بمحدّدات زمنية وظروف موضوعية تجعل منه مستساغًا ومنسجمًا مع مبادئ العدل، ومع مقتضيات الحكمة الإلهية.

الكلمات المفتاحية:

الصورة النبوية- النظرة الغربية للنبي- إباحة دم الكافر- نشر الإسلام بالسيف- تسامح النبي.

مقدّمة:

لم تعد الإساءة إلى النّبيّ الأكرم ﷺ أمرًا مفاجئًا أو صادمًا، فقد توالت الرّسوم المسيئة للنّبيّ في المجلات الغربيّة، وتوالت الإساءات بشتّى أنواعها ومختلف طرائقها. ولا شكّ أنّ لهذه الإساءات منابعُ متعددة، إلّا أنّ الّذي يهمّنا منها هنا، هو ما كان مبرِّرًا موضوعيًّا للصّورة السّوداويّة الّتي يحاول الغرب تكريسها، فإنّ في تراثنا الإسلاميّ ما يكفي لرسم تلك الصّورة، والبناء عليها.

والأمر ليس حبيس التّصوير والنّظريات الفكريّة، بل نجد انعكاساته بشكلٍ جليّ في عالمنا الإسلاميّ وخارجه، إذ إنّ في المسلمين اليوم من أُخذ بهذه الصّورة، فجرّه ذلك إلى أن يكون سوداويًّا متعصِّبًا، وفيهم من آمن بواقعيّة تلك الصّورة، فنفر منها ومن الدّين، وصار في الضّفة الأخرى معلنًا إلحاده أو لا دينيّته. أمّا خارج العالم الإسلاميّ فقد صارت تلك الصّورة مانعًا عن التعرّف على دين الحقّ.

فالبحث يدور حول حقيقة الصّورة النّبويّة، وكيف يعكسها التّراث الإسلاميّ لنا، فهل النّبيّ الّذي نريد تقديمه للعالَم موجود في التّراث الإسلاميّ بشكل واضح وجليّ؟ أم إنّ الصّورة السّوداوية الّتي يسعى الغرب إلى تكريسها، والّتي ينتقدها العالَم الإسلاميّ، وينتفض في وجه مُروّجيها يعكسها تراثنا بشكلٍ أو بآخر؟

إنّ المشكلة الأساسيّة الّتي يواجهها البحث، هي هذا التّناقض بين رفض الصّورة المشوّهة، وبين تبنّي معالم ومباني تلك الصّورة في كتبنا وفتاوى فقهائنا، والطّريق الذي ينتهجه البحث في معالجة المشكلة، هو استقراء النّماذج المختلفة الّتي توجد في شتّى الكتب الإسلاميّة، والّتي يتبيّن من خلالها وجود صورتين متغايرتين للنّبيّ الأكرم ﷺ، فالصورة المشرقة النّيّرة موجودة والصّورة السّوداويّة المشوّهة موجودة أيضًا، وإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ لنا من تبنّي إحدى الصّورتين ورفض الأخرى، على أنّ ذلك لا يكون بالاستحسان والانتقاء الذّاتي، بل يخضع

لمعايير موضوعيّة تحتّم علينا قبول إحداهما وردّ الأخرى، وهنا لا بدّ من تحكيم العقل والأدلّة النّقليّة المناسبة في فضّ النّزاع.

■ أوّلًا: الصّورة السّوداويّة:

أ- إباحة دماء غير المسلمين وأموالهم:

ينقل لنا التّراث الإسلاميّ أحاديث نبويّة، تفيد استباحة دماء النّاس وأموالهم ما لم يؤمنوا بالرّسول ﷺ ويدخلوا في دين الإسلام، وكأنّ النّبيّ مكلّف بقهر النّاس على أن يكونوا مؤمنين، كالحديث الوارد في صحيح البُخاريّ إذ ينسب لرسول الله ﷺ أنه قال: «أُمرتُ أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، ويقيموا الصّلاة، ويؤتوا الزّكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم، إلّا بحقّ الإسلام وحسابهم على الله»[1].

وفي حديث آخر: «أُمرت ان أقاتل النّاس، حتّى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها وصلّوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا، فقد حُرّمت علينا دماؤهم وأموالهم، إلّا بحقّها وحسابهم على الله»[2]، فالنّبيّ مأمورٌ بقتال النّاس وسفك دمائهم، إلاّ أنّهم إذا نطقوا بالشّهادة، والتزموا بالشرّع حُرّمت أنفسهم وأموالهم عليه. كذلك ينقل الشّيخ الصّدوق: «عن عليّ عليه السلام، قال»: قال النّبيّ ﷺ: أُمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد حرم عليَّ دماؤهم وأموالهم»[3]، فدماء النّاس وأموالهم لا تكون حرامًا على النّبيّ حتّى يقرّوا بالتّوحيد.

ونطالع في تفسير القمّي خطبة الرّسول ﷺ يوم غدير خُم، وممّا تضمّنته: «أَلَا أيّها النّاس إنّ المسلم أخو المسلم حقًّا، لا يحلّ لامرءٍ مسلمٍ دم امرءٍ مسلم وماله، إلا ما أعطاه بطيبة نفس منه، وإنيّ أُمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله، فإذا قالوها فقد عصموا منّي دماءهم وأموالهم، إلّا بحقّها وحسابهم على الله. أَلَا هل بلّغت أيّها النّاس، قالوا نعم قال اللّهم اشهد»[4].. فالنّبيّ يضع قانون الحرمة في أواخر حياته، كوصية خالدة يجب على المسلمين اتّباعها، فالحرمة

1- البُخاريّ، صحيح البُخاريّ،1: 17، ح25.
2- المصدر السابق، 153،ح385.
3- الصدوق، عيون أخبار الرضا،1:70، ح280.
4- القمي، ع: تفسير القمّي،1: 172.

مختصّة بالمسلم، والواجب قتال النّاس إلى أن يدخلوا في الإسلام.

ولو ذهبنا إلى كتب الفقه، لوجدنا أنّ الأحكام الفقهيّة متوائمة مع الأحاديث السّابقة، فهذا إمام الشّافعيّة يصرّح: «إنّما يحرم الدّم بالإيمان»[1]، ليحصر الحرمة بالمسلمين وينفيها عن غيرهم: «ولا يحقن دم الكافر حتّى يُسلم»[2].

وممّا أورده الشّيخ الطّوسيّ: «الكفار على ثلاثة أضرب أهل كتاب، وهم اليهود والنّصارى فهؤلاء يجوز إقرارهم على دينهم ببذل الجزية، ومن له شبهة كتاب فهم المجوس، فحكمهم حكم أهل الكتاب يقرّون على دينهم ببذل الجزية؛ ومن لا كتاب له ولا شبهة كتاب، وهم من عداء هؤلاء الثّلاثة أصناف من عبّاد الأصنام والأوثان والكواكب وغيرهم، فلا يقرّون على دينهم ببذل الجزية. ومتى امتنع أهل الكتاب من بذل الجزية، قوتلوا، وسُبيَت ذراريهم، ونساؤهم وأموالهم تكون فيئا»[3]، فغير المسلم إمّا أن يكون من أهل الكتاب أو يكون من غيرهم، فإن كان من أهل الكتاب كان له ثلاثة خيارات: بذل الجزية، أو الإسلام، أو الاستسلام للقتل والسّبي. أمّا لو كان من غير أهل الكتاب فهو أمام خيارين فقط: إمّا الإسلام وإما القتل، كما يؤكّد العلامة الحِلّيّ: «كلّ من عدا الأصناف الثلاثة، فإنّه لا يقبل منهم إلّا الإسلام، فإن أجابوا، وإلاّ قتلوا»[4].

ب- طرد أهل الكتاب من جزيرة العرب:

تبيّن فيما سبق أنّ لأهل الكتاب ميزة خاصّة، حيث يمكنهم البقاء ضمن الدّولة الإسلاميّة، إلا أنّ هذه الميزة قد تم إلغاؤها والتّراجع عنها بحسب هذه الرّواية: «لأخرجنّ اليهود والنّصارى من جزيرة العرب حتّى لا أدع إلّا مسلمًا»[5]، حيث أراد النّبيّ أواخر حياته إخراج أهل الكتاب من الجزيرة العربية، وهي بلاد المسلمين آنذاك. ونجد انعكاسات ذلك حتّى في كتب الفقه الشّيعيّة: «ولا يجوز لهم استيطان الحجاز على قول مشهور، بل في المنتهى ومحكي المبسوط والتّذكرة الإجماع عليه»[6].

1- الشّافعي،الأم،6: 169.
2- المصدر السّابق، 4: 236.
3- الطّوسي،م: المبسوط، 2: 9.
4- الحلّيّ،ح: تحرير الأحكام، 2: 138.
5- مسلم النّيسابوريّ، صحيح مسلم، 5: 160،ح 1767.
6- الجواهري، م: جواهر الكلام،21: 289.

جـ- إقرار القتل بطرق وحشيّة:

جاء في السّير أنّ النّبيّ ﷺ أرسل سريّة بقيادة زيد بن حارثة إلى بني فزارة، حيث كان فيهم امرأة مطاعة عندهم تدعى أم قِرْفة، تحرّض على قتال النّبيّ، وقد جهّزت أربعين رجلاً لقتله ﷺ، فأوقعهم زيد بين قتيل وأسير، وممّا ينقله التّاريخ وقوع أم قِرْفة وابنتها أسيرتين بيده، فقام بقتل الأمّ العجوز بطريقة شنيعة إذ ربط رجليها بين بعيرين وشقّها شقًّا، ثمّ أتوا بجثّتها إلى النّبيّ ﷺ، ولم يُنقل لنا أيّ اعتراض أو استنكار منه ﷺ، بما يوحي بإقراره تلك الفعلة وموافقته عليها: «بعثه[1] رسول الله في جيش إلى بنى فزارة فلقيهم بوادي القرن فأصاب فيهم وقتل قيس بن المسحّر اليعمُري مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر، وأسر أمّ قرفة وهى فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وكانت عند مالك بن حذيفة بن بدر عجوزًا كبيرة وبنتًا لها وعبد الله بن مسعدة، فأمر زيد بن حارثة أن يقتل أمّ قرفة فقتلها قتلاً عنيفًا، ربط برجليها حبلين ثم ربطهما إلى بعيرين حتّى شقّاها، ثمّ قدِموا على رسول الله بابنة أم قرفة وبعبد الله بن مسعدة»[2].

وتمّ نقل هذه الحادثة في عدّة كتب أخرى مثل الطّبقات الكبرى لابن سعد[3]، وتاريخ اليعقوبي[4].

ولعلّ ذلك ممّا استند إليه ابن تيميّة في إجازة التّمثيل بالعدّو: «فأمّا إن كان في التّمثيل السّائغ لهم دعاء إلى الإيمان، أو زجر لهم عن العدوان، فإنّه هنا من إقامة الحدود والجهاد المشروع»[5].

د- مباركة قتل المستسلمين وسبي نسائهم.

استسلم بنو قريظة للجيش الإسلاميّ بعد حصار قرابة الشّهر، فأمر النّبيّ أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، فحكم بقتل الرّجال وسبي النّساء، وبارك النّبيّ ذلك الحكم: «عن أبي سعيد الخدريّ أنّ أناسًا نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأرسل إليه فجاء على حمار فلمّا بلغ قريبًا من المسجد،

1- أي بعث زيد بن حارثة.
2- ابن جرير الطّبريّ، تاريخ الطّبري، 2: 287.
3- ابن سعد، الطّبقات الكبرى،2: 90.
4- اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، 2: 71.
5- ابن تيميّة، المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة، 3: 223.

قال النّبيّ ﷺ:» قوموا إلى خيركم أو سيدكم»، فقال:» يا سعد إنّ هؤلاء نزلوا على حكمك»، قال:» فإنّي أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم»، قال:» حكمت بحكم الله أو بحكم الملك»[1]. وجاء في سنن الترّمذيّ أنّهم كانوا أربعمئة[2].

■ ثانيًا: الصّورة المشرقة.

أ- شخصيّة النّبيّ ﷺ في كتاب الله:

يفيض رسول الله ﷺ رحمةً ورأفةً، فيحرص على المؤمنين ويشقّ عليه ما يتعرّضون له من مكروه: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، وهو ليّنٌ للمؤمنين، يشاورهم ويعفو عنهم حينما يخطئون: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[4].

ورحمته لا تنحصر بقومه دون سائر النّاس، كيف وهو الموصوف بالخلق العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[5]، والمبعوث رحمةً للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[6]، فها هو النّبيّ يتألّم حين يرى أُناسًا ضيّعوا أنفسهم ولم يؤمنوا بدين الله: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[7]، ويكاد يُهلك نفسه أسفًا عليهم: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[8].

ثمّ إنّ هذه الشخصيّة العظيمة، رغم ألمها وحسرتها على ما ظلم به الكفار أنفسهم، إلا أنّها ليست بصدد إجبار الناس على الإيمان، فالإيمان لا يكون بالإكراه والإجبار: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[9]، لتنسجم هذه الآية

1- البُخاريّ، صحيح البُخاريّ، 3: 1384، ح3593.
2- الترّمذي، سنن الترّمذي، 4: 123،ح 1582.
3- التوبة: 128.
4- آل عمران: 159.
5- القلم: 4.
6- الأنبياء: 107.
7- سورة فاطر: 8.
8- سورة الشعراء: 3.
9- يونس: 99.

مع سائر الآيات كقوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1]، وتبيانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[2].

فالإيمان والكفر تابعان لقرار الإنسان ومشيئته: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[3]، وعلى النبي أن يبلّغ: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[4]. ولو كان النبيّ رافضًا للآخرين مستحلاً لدمائهم كيف يبلّغنا قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[5]؟!

فالنّبيّ الأكرم ﷺ كما يصوّره لنا القرآن الكريم خلوق رحيم رؤوف، يتمنّى هداية جميع النّاس إلى الحقّ كي يسعدوا في الدّنيا والآخرة، لكنّه يصرّح بعدم استطاعته إكراه النّاس على ذلك، إذ لا إكراه في الدّين فيكتفي بتبليغ الرّسالة والدّعوة إليها بالحكمة والموعظة الحسنة، وتبقى بعد ذلك لكلّ إنسان حريّة اختيار الإيمان أو اختيار الكفر، ثمّ إنّه ﷺ يبلّغ النّاس حبّ الله لمن يبرّ الآخرين حين لا يكونون في معرِض الاعتداء على الدّين وأهله.

ب- معيار رسول الله ونظرته إلى النّاس والأشياء:

كثيرة هي الرّوايات والشّواهد الّتي تبيّن كيفية تعاطي النّبيّ الأعظم ﷺ مع الآخرين، من ذلك ما جاء في الكتب الحديثية: «إنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلّم مرّت به جنازة، فقام فقيل له إنّها جنازة يهوديّ فقال أليست نفساً؟»[6]، فالنّبيّ حين قام لجنازة اليهوديّ، لم يلتفت إلى كفره، لأنّ ذلك لا يدخل في معاييره الشّريفة، وهذا ما نلحظه بوضوح عند إخبار صحابته له بأنّه يهوديّ، حيث أجاب: «أليست نفساً؟!»، ليدلّ ذلك على أنّ كلّ نفسٍ إنسانيّة تستحقّ الاحترام بغضّ النّظر عن إيمانها أو كفرها.

1- الغاشية: 22.
2- البقرة: 256.
3- الكهف: 29.
4- النحل: 125.
5- الممتحنة: 8.
6- صحيح البُخاريّ،1: 442،ح 1250.

كيف لا والخلق كلّهم عيالُ الله، ومحبّته تعالى متعلّقة بمن ينفع عياله ويدخل السّرور عليهم: «الخلق عيال الله فأحبّ الخلق إلى الله من نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيت سرورا»[1].

وفي المصادر السّنيّة ﷺ: «الخلق عيال الله فأحبّ النّاس إلى الله من أحسن إلى عياله»[2].

بل إنّ الإحسان لا ينحصر بالبشر، فقد دلّت الرّوايات على مطلوبيّة الإحسان إلى سائر المخلوقات، ومن ذلك: «بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها، فشرب، ثمّ خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثّرى من العطش، فقال الرّجل:» لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الّذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفّه، ثمّ أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا يا رسول الله:» وإنّ لنا في البهائم أجرًا؟» فقال:» نعم في كلّ ذات كبد رطبة أجر»[3]، ومنها: «من حفر ماء لم يشرب منه كبد حري من جنّ ولا إنسٍ ولا طائرٍ إلا آجره الله يوم القيامة، ومن بنى مسجدًا كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتًا في الجنّة». قال يونس: من سبع ولا طائر»[4]، ومثل فائدته ما جاء في السِّيرَ، حيث تروي لنا كتب السّيرة أنّ رسول الله ﷺ اهتمّ لأمر كلبة وأولادها أثناء مرور جيشه، فعيّن شخصًا لحمايتها: «لَمّا سَارَ رَسُولُ اللهِ مِنْ الْعَرْجِ، فَكَانَ فِيمَا بَيْنَ الْعَرْجِ وَالطّلُوبِ، نَظَرَ إلَى كَلْبَةٍ تَهرّ عَلَى أَوْلَادِهَا، وَهُمْ حَوْلَهَا يَرْضَعُونَهَا، فَأَمَرَ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِهِ يُقَالُ لَهُ جُعَيْلُ بْنُ سُرَاقَةَ أَنْ يَقُومَ حِذَاءَهَا، لَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ مِنْ الْجَيْشِ وَلِأَوْلَادِهَا»[5]، فرأفة النّبيّ ورحمته بالحيوانات بلغت درجةً يأمر من خلالها النّبيّ رجلاً بحمايتها، من أن يتعرّض لها أحد من جيشه.

جـ - التّسامح والعفو سمة بارزة في شخصيّة النّبيّ ﷺ ومواقفه.

تنقل لنا الكثير من المواقف الّتي تُظهِر تسامح رسول الله، وعفوه عمّن أساء إليه وظلمه،

1- الكافي،2: 164،ح 6، من باب الاهتمام بأمور المسلمين.
2- الطّبراني، المعجم الأوسط، 6: 253،ح 5537.
3- صحيح البخاري، 5: 2238، ح5663.
4- ابن خُزيمة، صحيح ابن خُزيمة، 1: 637،ح 1292.
5- الواقدي، المغازي،2: 804.

ويصل بعضها حدًّا يصعب وصفه واستيعابه، منها ذلك الموقف الّذي ينقضّ فيه مشرك على رسول اللهﷺ يريد قتله، وبتدخّل من الله عزّ وجلّ، ينقلب الأمر ليصبح ذلك المشرك تحت رحمة رسول الله، فما هو فاعلٌ بمن غدر به وأراد قتله؟!

يروي لنا الشّيخ الكُليني هذه الحادثة: «نزل رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرّقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه وبين أصحابه، فرآه رجل من المشركين، والمسلمون قيام على شفير الوادي ينتظرون متى ينقطع السّيل، فقال رجل من المشركين لقومه:» أنا أقتل محمّدًا، فجاء وشدّ على رسول الله ﷺ بالسّيف، ثمّ قال: «مَنْ يُنجيك منّي يا محمّد»؟ فقال: «ربّي وربّك»، فنسفه جبرئيل عليه السلام عن فرسه فسقط على ظهره، فقام رسول اللهﷺ وأخذ السّيف وجلس على صدره وقال: «مَنْ يُنجيك منّي يا غورث»؟ فقال: «جودك وكرمك يا محمّد»، فتركه فقال وهو يقول: «والله لأنت خير منّي وأكرم»[1].

وها هو النّبيّ ﷺ رغم كلّ الأذى الّذي مارسته قريش ضدّه، ورغم كلّ الإساءات والعذابات الّتي تعرّض لها منهم، لم يقابلهم إلا بالعفو والصّفح حين تمكّن منهم وخضعت له مكة بعد الفتح، إذ تروي التواريخ أنّ رسول الله ﷺ جمعهم ثمّ قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطّلقاء»[2].

د - النّبيّ ينهى عن التّمثيل نهيًا مطلقًا.

ممّا جاء في نهج البلاغة ما نقله الإمام عليّ عليه السلام عن النّبيّ الأعظم ﷺ: «إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور»[3].

وفي سنن النّسائيّ: «مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم على أناس، وهم يرمون كبشاً بالنّبل، فكره ذلك وقال لا تمثّلوا بالبهائم»[4]، وينقل بعد ذلك قول النّبيّ ﷺ: «لعن الله من مثّل بالحيوان»[5]، وجاء في مسند أحمد أنّ رسول الله قال: «قال الله عزّ وجلّ لا تمثّلوا بعبادي»[6]،

1- الكافي،8: 127،ح 97.
2- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، 2: 60 – الطّبري، تاريخ الطّبري، 2: 337.
3- الرضي، نهج البلاغة،3: 77.
4- النّسائيّ، سنن النّسائي7: 238، ح 4440.
5- المصدر السابق،ح 4442.
6- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، 4: 173،ح 17118.

ونرى انعكاسات ذلك في الأحكام لفقهيّة، فهذا شيخ الطّائفة يبيّن الحكم الشّرعي: «لا يجوز التّمثيل بالكفّار ولا الغدر بهم ولا الغلول فيهم»[1].

ومن فتاوى فقهائنا المعاصرين، ما جاء في الرّسالة العمليّة للسّيد الخوئيّ، نعرضه كنموذج لما يفتي به مراجعنا العظام: «لا يجوز التّمثيل بالمقتولين من الكفار، لورود النّهي عنه في صحيحة جميل ومعتبرة مسعدة المتقدّمتين آنفا. وكذا لا يجوز إلقاء السّمّ في بلاد المشركين لنهي النّبيّ ﷺ في معتبرة السّكونيّ عن أبي عبد الله عليه السلام قال:» قال أمير المؤمنين عليه السلام: نهى رسول الله ﷺ أن يلقى السّمّ في بلاد المشركين»[2].

■ ثالثًا: بيان التّغاير بين النّماذج السّابقة.

المدّعى هو أنّ التّراث الإسلاميّ يعكس صورتين متغايرتين لرسول الله ﷺ، فما الدّليل على ذلك؟ أَلَا يمكن أن يكون النّبيّ ﷺ قد قام بكلا السّلوكين المبيّنين في النّماذج السّابق ذكرها؟

يمكن الإجابة عن ذلك بوضوح التّناقض، بين الدّعوة بالموعظة الحسنة والإقرار بأن لا إكراه في الدّين، وبين الدّعوة بالسّيف وقتال النّاس بُغية نقلهم إلى الإسلام، فلا يمكن أن تكون الدّعوة إلى الدّين عبر الحكمة وأن يُشهر السّيف على المدعوّ لإرغامه على الدّخول في الإسلام، ولا يمكن أن يقرّ عاقل بأن لا إكراه في الدّين، ثمّ يسعى جاهدًا لإكراه النّاس عليه. وكذلك لا يمكن أن يحكم الرّسول بإباحة دم الكافر وماله، ثمّ يعلن احترام النّفس الإنسانيّة ويحضّ على الإحسان إلى عيال الله، فهذان سلوكان متناقضان، لا يجتمعان إلّا على أحد وجهين:

أ- النّسخ.

قد يُقال بأنّ الأحكام الّتي كان معمولاً بها في بداية بعثة النّبيّ، تمّ نسخها بواسطة الآيات التي نزلت في أواخر حياة النّبيّ ﷺ، كآيات سورة التّوبة، وبالأخصّ آية السّيف: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتمُّوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**

1- الطّوسي، المبسوط، 2: 19.
2- الخوئيّ، منهاج الصالحين،1: 373.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وبذلك يمكن تبرير سلوكيَْ النّبي ﷺ معًا، ففي البداية انتهج منهج اللّين والموعظة الحسنة وعدم الإكراه، أمّا بعد نزول الآية وتشريعها قتال المشركين، فلا مجال للّين وحريّة الاعتقاد، بل لا بدّ للمشركين وسائر الكفّار من الإسلام أو مواجهة القتل، ويُستثنَى من ذلك أهل الكتاب، فلهم خيار آخر هو دفع الجزية والالتزام بشرائط كثيرة.

والنّتيجة الّتي سوف نحصل عليها من خلال هذا، هي صورة سوداويّة أخرى مفترضة للنّبيّ ﷺ، فهو لا يثبت على مبادئ أخلاقيّة واحدة، حيث يستعمل الحكمة والموعظة الحسنة في وقت، ثمّ يبدّل أسلوب تعامله في وقت آخر حين تميل كفّة القوّة إليه. ففي مكّة حيث الضّعف والاضطهاد يتمسّك بمقولة (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، وفي المدينة عندما كانت الدّولة لا تزال فتيّةً، لا تقوى على مجابهة الجميع يتمسّك بقانون (لا إكراه في الدّين)، أمّا حين استتبّت له أمور الحُكم نسخ كلّ ذلك وأعلن لأتباعه أن: (قاتلوا المشركين كافّة)!.

ب- التخصيص.

وقد يقُال أيضًا بِأَنّ الدّعوة باللّين والموعظة الحسنة، إنّما تتعيّن في ظروف خاصّة، كما في حالة العجز عن الجهاد وقتال الكفّار بسبب كثرتهم وضعف المسلمين، أمّا حين تتغيّر الأحوال وتتوفّر القوّة لمهاجمة الأعداء لزم ابتداؤهم بالجهاد، فلا يعصمهم عن القتل حينها إلّا الإسلام أو دفع الجزية إن كانوا من أهلها.

وهذا الافتراض هو الآخر لا ينتج عنه سوى تكريس للصّورة السّوداويّة، فالنّبيّ بناءً على هذا التّأويل لا يختلف عن الافتراض السّابق، إلّا في شيء واحد، هو أنّه هناك استخدم الودّ والحكمة لمرّة واحدة، أمّا هنا فقد أورث المسلمين إمكانية استخدام أسلوبه كلّما تكرّرت الظّروف ذاتها. فلو كان المسلمون في حالة ضعفٍ أمكنهم التّمسّك بآيات الحكمة والموعظة الحسنة، ولو كانوا في حالة قوّة واقتدار وجب عليهم النّفور وفقًا لآية السّيف.

وهكذا نجد أنّ الجمع بين السّلوكين لا يقدّم سوى ترسيخ الصّورة السّوداوية، فالتّغاير حاصلٌ

1- التّوبة: 5.

بين تصوّر النّبيّ شخصيَّةً تسعى إلى إدخال النّاس في الإسلام عبر طرق الدّعوة الحكيمة والحسنة، من خلال الإقناع والتّبيين، وتحترم الخلق جميعًا، فلا تنهى عن الإحسان إلى الآخرين، وبين تصوّر النّبيّ إقصائيًّا لا يقبل بالآخر في دولته، ولا خارجها، وإن ركن للسّلم والبرّ والإحسان في بعض المواقف والوقائع، فإنّما يكون ذلك بشكلٍ مؤقّت ريثما تمرّ الظّروف الحالية.

■ رابعًا: ارتباك الصّورة في منظار الآخرين:

من الطّبيعي أن نجد الصّورة مرتبكة عند الآخرين، طالما أنها مرتبكة على مستوى التّراث الإسلاميّ نفسه، فحين نطالع ما أدلى به مفكرو الغرب، نجد بعضًا منهم رسم له الصّورة الأولى، الّتي أوردناها تحت عنوان الصّورة السّوداويّة، والبعض الآخر رسم له الصّورة الثّانية الّتي أوردناها تحت عنوان الصّورة المشرقة.

والقارئ المسلم يرى في القسم المنحاز إلى الصّورة المتزمّتة، أنه معادٍ للإسلام ويحمل نوايا سيئة تجاهه، وهذا المدرّس المساعد في جامعة الكوفة محمّد عبد علي حسين القزّاز، لا يجد وصفًا سوى وصمهم بالمُعاداة للإسلام فيقول: «في بيئة هذا الاستشراق من كانت لهم مواقف معادية للإسلام»[1].

وعندما يتحدّث عن أحد هؤلاء المستشرقين يقول: «سمح مرارًا لنفسه في كتبه بالنّيل من الرّسول محمّد ﷺ ومن الإسلام»[2].

فلا يستطيع أنْ يرى من آرائهم حول النّبيّ إلّا المُعاداة لشخص الرّسول ودين الإسلام، في حين أن البعض الآخر من المستشرقين، كما أسلفنا، كانت لهم نظرة مختلفة حول النّبيّ ﷺ توصف عادة بأنّها نظرة منصفة وموضوعيّة في دراسته لشخصيّة الرّسول محمد ﷺ: «كان ذا طابع موضوعيّ»[3].

ولا تجد الدّكتورة آمنة محمّد عليّ، تقسيمًا للمستشرقين في دراستهم للإسلام وشخصية

1- محمّد عبد علي القزاز، مجلّة مركز دراسات الكوفة، الإصدار 25، المجلّد1، مقالة بعنوان «أثر شخصيّة الرّسول الأعظم في الاستشراق الرّوسي»، 52.
2- المصدر السّابق، 53.
3- المصدر السابق، ص55.

الرّسول، سوى تقسيمهم إلى معارضين ومؤيّدين، لكنّها تعترف عند حديثها عن المستشرقين المعارضين لرسول الله ﷺ- أي الّذين كانت لهم مواقف سلبيّة، ترى فيه نبيًّا للعنف والسّيف- بأنّهم أخذوا تصوّرهم من دراستهم للسّيرة النّبويّة والتّراث الإسلاميّ حول ذلك، حيث تقول: «أمّا السّيرة النّبويّة فقد اعتمدوا في اطّلاعهم عليها، من خلال كتب السّيرة والتّاريخ والتّراث العربيّ الإسلاميّ»[1].

أ- الصّورة السّلبيّة.

لا ينبغي أن يكون مستغرَبًا غَلَبَة كفّة «المعارضين» على كفّة «المؤيّدين»، فالإنسان بطبعه يميل إلى مُعاداة ما يجهله وتقزيم الآخرين وتسفيههم، كما أنّ التّراث الإسلامي يميل إلى التّصوّر السّلبيّ أكثر من التّصوّر الإيجابيّ بالنّسبة لقارئ أجنبي، إذ يمكن الجمع بين المعطيات كلّها ضمن التّصوّر الأوّل كما بيّنّا سابقاً، ولا يمكن ذلك ببساطة ضمن التّصوّر الثّاني.

لقد أثّر ذلك بشكلٍ عميقٍ على فهم العلماء الغربيّين والأدباء العظام، حتّى نرى فولتير[2] الأديب الفرنسي الشّهير يؤلّف مسرحية عن التّعصّب والتزمت، فلا يجد لها موضوعًا بارزًا وعنوانًا يهاجم من خلاله هذه الصّفة السّلبية سوى نبيّنا الأكرم رسول الرّحمة ﷺ، فيسمّي عمله المسرحيّ آنف الذّكر بعنوان: (محمّد)، فكم لهذا من دلالة على عميق الأثر السّلبي الّذي يخلفه تراثنا الإسلاميّ في عقول من اطّلعوا عليه ورأوا نبيّنا الأكرم من خلاله!

يذكر ويل ديورانت أنّ العرض الأوّل لهذه المسرحية كان في مدينة (ليل) سنة 1741 م، ويقول: «إنّها كانت تهاجم التّعصب الأعمى والتزمت»[3]، ورسمت للرّسول الأكرم صورة غير محبّبة: «صوّرت الرّسول في صورة غير ودّية»[4].

1- آمنة عليّ، المجلّة السّياسيّة والدّوليّة، الإصدار 25، مقالة بعنوان «أوروبا والإسلام.. اختلاف الرؤى والمفاهيم العقائديّة وانعكاسه على الموقف الأوروبيّ من الإسلام»، ص313.

2- فرانسوا ماري آروويه ويُعرف باسم شهرته فولتير (21 نوفمبر 1694 – 30 مايو 1778) هو كاتب وفيلسوف فرنسيّ عـاش خلال عصر التّنوير. عُرف بنقده السّاخر، وذاع صيته بسبب سخريته الفلسفيّة الطّريفة ودفاعه عن الحريّات المدنيّة خاصّة حريّة العقيدة والمساواة وكرامة الإنسان.

3- ويل ديورانت، قصة الحضارة، 12169.

4- المصدر نفسه.

أمّا عالم النّفس السّويسريّ كارل جوستاف يونج[1] مؤسّس علم النّفس التّحليليّ، فلو رأينا ما يقوله في هذا الشّأن لأصابتنا الدّهشة من تشبيه أدولف هتلر بنبيّنا الأكرمﷺ، متسائلا إن كان هتلر ينوي تدشين إسلام جديد؟!! فقد جاء في أعماله المجموعة قوله: «لا نعرف ما إذا كان هتلر قد بدأ لِتَوُه إسلامًا جديدًا. إنّه بالفعل هناك، يشبه محمّد. العالم العاطفي الألمانيّ هو الإسلام. إنّهم جميعًا في حالة سكر مع الله الهائج قد تكون هذه هي قصّتنا المستقبليّة»[2].

وهذا العالم الفرنسي الشّهير بليز باسكال[3] عالم الرّياضيات المعروف، عندما يقارن بين الإسلام والمسيحيّة يجد أنّ هناك فارقًا بارزًا بين نبيّ الإسلام ونبيّ المسيحيّة، فالأوّل يعلم أتباعه القتل وإراقة الدّماء، في سبيل نشر تعاليم الدّين وفرضه على الآخرين، بينما الثّاني يعلّمهم كيف يضحّون بأنفسهم، ويبتعدون عن القتال وإراقة الدّماء، بل يرى أنّ الإسلام لم يتأسّس وينتشر، إلا بفلسفة القوّة والسّيف والإرغام: «أسّس محمّد ديانة بقتله لأعدائه، وأسّسها المسيح بوصيته لأتباعه أن يضحّوا بحياتهم»[4].

وهكذا لو قمنا باستقصاء أقوال معظم المستشرقين والغربيّين من علماء وأدباء، لوجدنا جُلّ آرائهم تصوّر الرّسول الأكرمﷺ بالصّورة الدّموية الّتي تحارب النّاس، لتجبرهم على الإيمان به، والانصياع لسلطانه وقوّته.

لكن هل من الإنصاف رمي هؤلاء كلّهم بأنّهم مغرضون، وأصحاب نوايا سيئة وعدوانية تجاه الإسلام وأهله، وفيهم من فيهم من مفكرين وأدباء وعلماء كبار؟ أليس من الموضوعيّة، التّعامل مع هذه التّصوّرات على أنّها نتاج طبيعيّ لِمَا ورد في التّراث وانعكاس له في فكر الآخرين؟

1- كارل غوستاف يونغ هو عالم نفس سويسري ومؤسّس علم النّفس التّحليليّ. عاش (26 يوليو 1875 - 6 يونيو 1961).

2- C. G. Jung: Collected Works Bd. 18: S. 281.

3- بليز باسكال «Blaise Pascal»؛ (19 يونيو 1623 - 19 أغسطس 1662)، فيزيائيّ ورياضيّ وفيلسوف فرنسيّ اشتُهر بتجاربه على السّوائل في مجال الفيزياء، وبأعماله الخاصّة بنظرية الاحتمالات في الرّياضيات هو من اخترع الآلة الحاسبة.

4- Blaise Pascal, Thoughts on Religion and Philosophy, p122.

ب- الصّورة الإيجابيّة.

على المقلب الآخر، نجد أنّ المستشرقين المؤيّدين، أو أصحاب النّظرة الإيجابيّة إلى رسول الله ﷺ، تمكّنوا من النّفاذ بنظرتهم العميقة والثاقبة إلى حقيقة الرّسول ﷺ، وصورته الرّحمانية الّتي تعرّضت للظّلم والتّشويه الكبير، فعلى سبيل المثال يخلص المستشرق البريطانيّ ويليام مونتجرمي واط[1]، بعد دراسته المعمّقة للسّيرة النّبويّة والدّين الإسلاميّ الحنيف، إلى أنّ النّبيّ الأكرم محمّد بن عبد الله ﷺ ليس مدّعيًا ولا دجّالاً كما يدّعي «المعارضون» له، بل إنّه مظلوم في كتابات الغرب، وتعرّضت صورته للتّشويه الكبير على أيديهم.

يقول مونتجرمي في كتابه (محمّد في مكة):» فاستعداده لتحمّل الاضطهاد فى سبيل معتقداته، وسموّ الرّجال الّذين آمنوا برسالته والّذين اعتبروه قائدًا لهم، وعظمة ما تمخضّت عنه جهوده من انجازات- كلّ هذا يبرهن على نظرته الكليّة»[2].

وبعد أن ينتقد نظرة الغرب نحو النّبيّ ﷺ وتصويرهم إيّاه على أنّه مثير للمشاكل، يؤكّد بأنّ ما من أحد من العظماء، قد تعرّض للظّلم كما تعرّض له هذا الرّسول العظيم ﷺ: «وأكثر من هذا فلا أحد من عظماء التّاريخ لاقى من الغُبن والظّلم فى الغرب، مثلما لاقى محمّد صلّى الله عليه وسلّم»[3].

وينقل لنا حسين حسينيّ معدي شهادات العديد من علماء الغرب ومستشرقيهم ممّن شهدوا للنّبيّ ﷺ بالرّحمة والعدالة وسائر الصّفات الحميدة، ونستعرض ممّا أورده قولين اثيين، أوّلهما للمستشرق الإيطاليّ ميكلانجلو اغناطيوس جويدى: «الّذي يريد أن يتعرّف على الإسلام، أدعوه ليتعرّف على سيرة المصطفى الّذي تمّ اختياره وتدريبه وتأديبه من السّماء ليكون أهلاً للرّسالة الّتي تمّ صنعه من الله لها منذ الأزل»[4].

1- وليام مونتغمري واط (14 مارس 1909 - 24 أكتوبر 2006) هو مستشرق بريطانيّ عمل أستاذا للّغة العربيّة والدّراسات الإسلاميّة والتّاريخ الإسلاميّ بجامعة إدنبرة في إدنبرة-اسكتلندا. من أشهر كتبه كتاب محمّد في مكّة (1953)، وكتاب محمّد في المدينة (1956) في جامعة إدنبرة.

2- ويليام مونتجرمي واط، محمّد في مكة: 121.

3- المصدر نفسه.

4- حسين حسيني معدي، الرّسول ص في عيون غربية منصفة: 169.

والآخر للإنجليزي إدوارد لين الّذي قال: «النّبيّ محمّد جاء بالأخلاق، وهي أخلاق عاشت وستظل إلى يوم البعث قائمة، ولن ينال المغرضون الكارهون لنبيّ الإسلام منه شيئًا وسيظل الإسلام شامخًا بقرآنه وبالنّبيّ محمّد رغم أنف الكارهين»[1].

■ خامسًا: الصّورة الواقعيّة:

تمخّض عمَّا سبق أنَ المطالع لموروثنا الإسلاميّ، يقف أمام تصورين لرسول الله ﷺ، الأوّل سوداويّ يكون النّبيّ من خلاله دمويًّا إقصائيًّا، ويمكن تبرير المواقف الإيجابيّة الّتي قام بها وفق هذا التصوّر، باعتبارها تمّت قبل نزول الآيات النّاسخة لها، أو باعتبارها تطبيقات لسياسات ترتبط بظروف آنية.

والثّاني مشرق ينبثق من كلّ المواقف الإيجابيّة، والتّوصيفات الإلهيّة لشخصيّة النّبيّ العظيمة، ويحتاج الأمر إلى معالجة ما نسب إليه ﷺ من نماذج سلبيّة أو مواقف وأقوال متطرّفة.

فما هو التّصوّر الأقرب إلى واقع رسول الله؟

سنحاول معالجة المشكلة بطريقين، الأوّل عقليّ محضّ والآخر نقليّ تحليليّ.

أ- المعالجة العقليّة:

الغاية من إرسال الأنبياء دعوة النّاس إلى الحقّ، لكي تستنير قلوبهم وعقولهم ويسيروا في الطّريق الذي خُلقوا له، فإذا انتهج النّبيّ سبيلاً منفّرًا يؤدّي إلى بغضه والابتعاد عنه، كان ذلك مناقضًا للغرض الّذي بُعث من أجله، ونحن إذا تبنّينا التّصوّر الأوّل لرسول الله ﷺ فإنّنا نزعم نقض سلوك النّبيّ ورسالته للغرض الّذي وُجدا لتحقيقه، وننسب إلى الحكمة الإلهيّة ما يخلّ بها.

ويمُكننا إيضاح هذه الملازمة بين تبنّي المواقف، والنّماذج الواردة في إطار التّصوّر الأوّل وبين النفور المدّعى، ببعض الأدلّة الوجدانية، فأنت لو علمتَ بأنّ دولةً ما قامت بتجهيز جيش عظيم يغزو بلاد المسلمين، بغُية نقلهم إلى دينٍ ما، يدّعون أنّه دين الحقّ المنزل من السّماء، فإنّك تنفر منها وتستنكر ذلك بلا أدنى شكٍّ أو ريبٍ، وكذلك الأمر لو كنت المراقب لسلوك تلك الدّولة تجاه دولةٍ أخرى وشعبٍ آخر، فإنّك ستقول في قرارة نفسك إنّ هذا سلوك عدوانيّ مرفوض.

1- المصدر السّابق، 172.

فهذه هي الفطرة الإنسانيّة الّتي فطر الله الخلقَ عليها، ترفض أيّة دعوةٍ تأتي بنحوٍ من الضّغط والإلحاح، ناهيك عن الإجبار والإكراه والتّهديد.

ونحن نرى بأمّ أعيننا، كيف أنّ النّاس عمومًا تستنكرُ أسلوب الجماعات التّكفيرية، الّتي تقاتل كلّ من لا يؤمن بمعتقداتها، فلا تبحث أبدًا عن صحّة ادّعاءاتهم، بل تتعامل معها باعتبارها باطلةً تعامل المسلّمات، ولا شيء أدلّ على التّلازم من هذا المثال، فهذه الجماعات في الواقع إنّما تطبّق الصّورة النّبويّة الأولى، مع إشكالٍ في تحديد الكافر وقع فيه المسلمون الأوائل من قبل، والعبرة في النّفور الحاصل من قبل الآخرين مسلمين كانوا أم غير مسلمين.

ب- المعالجة النقلية.

يرتبط تبنّي الصّورة الأولى بتبرير أفعال النّبيّ الواردة في الصّورة الثّانية، إذ ينبغي الاعتقاد بحصول النّسخ في أواخر بعثة النّبيّ، أو اختصاص الأحكام الرّحيميّة بظروف محدّدة، وكلا الأمرين لا سبيل إليه، لأنّ الله تعالى بيّن حقائق مطلقة في كتابه العزيز، لا يُمكن أن تُنسخ أو تُحدّد بظروف خاصّة، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[1]، لا يمُكن أن نقبل بنسخه أو تخصيصه. فالآية ليست بصدد إعطاء حكم تعبّدي لعلّةٍ مخفيّة عنّا، لكي نحتمل نسخها أو تخصيصها بآية أخرى، بل هي تبيّن حقيقة إلهيّة واضحة مفادها حبّ الله تعالى للمقسطين، وتقرّ بأنّ معاملة من لا يحارب المسلمين معاملة حسنة هو من القسط والبرّ! ومثل هذا لا يُنسخ لأنّه حقيقة ثابتة، وإنّما تُنسخ الأحكام لا الحقائق!!

فلو فرضنا أنّ الحكم في الآية قد نُسخ، يفيد ذلك تحوّل الحكم إلى نقيضه، أيْ: ﴿**يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾، فلو نسخنا الحكم المبيّن في بداية الآية الكريمة، لا يمكننا نسخ الوصف الإلهي المبيّن في نهايتها، لأنّ هذا حقيقة وصفيّة لا حكم شرعيّ، والحاصل أنّ الله ينهى عن فعل يحبّه لو تفكّر أهل العقول!

1- الممتحنة: 8.

وعلى مثل هذا يجري قوله تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[1] وقوله ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾[2]، فهذه حقائق لا تقبل النّسخ لأنّها تخبر بحقيقة أنّ الدين لا يُعتنق بالإكراه، وبحقيقة عدم استطاعة النّبيِّ إكراهَ النّاس على الإيمان، وثبات هذه الحقائق مع سعي النّبيّ في قتال النّاس، حتّى يقولوا لا إله إلاّ الله نوع من العبث المنزّه عنه ﷺ.

ثمّ إنّ النّصّ القرآنيّ المقدّس يعود بنا مرّة أخرى إلى مربّع العقل العمليّ، فقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[3]، يفيد بأنّ أيّ شيءٍ منكر في حدّ ذاته من المحال أن يكون مطلوبًا لله، فالله لا يأمر بالفحشاء والله لا يحبّ الظّالمين، أيْ إنّ كلَّ شيء ينطبق عليه عنوان الظّلم أو الفحشاء مرفوضٌ، ومثل هذه الآيات ترشد إلى الحسن والقبح العقليّين، إذ لو لم يستقلّ العقل بالحكم على بعض الأفعال بأنّها فحشاء ما كان لقوله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾ معنى، ويترتّب على ذلك أنّه لو كان القسط إلى الكفار المسالمين شيئًا حسنًا، لا يمكن عندها أن يكون محدودًا بزمن أو ظروف خاصّة، لأنّ الحُسن حينما يكون ذاتيّاً لا يمكن أن يتبدّل إلى قُبح!!.

فهذه الأدلّة تمنعنا عن الأخذ بالصّورة الأولى، وتدفعنا إلى الإقرار بالصّورة الثّانية كصورة واقعية تمثّل حقيقة رسول الله ﷺ، ولا شكّ في وجوب معالجة الآيات والأحكام الّتي يظهر منها العنف والإقصاء، وكذلك جميع النّماذج الواردة في سياق الصّورة السّوداويّة، ومعالجتها ممكنة عبر نفي ما كان ظنّيًّا حين لا يقبل التّأويل والتّفسير، فما حصلنا عليه من خلال الاحتكام إلى العقل والآيات القطعيّة يمنعنا عن الأخذ بأيّ ظنّ مناقضٍ له، أمّا ما كانَ قطعيًّا فلا بدّ من تخصيصه بالظّروف الآنيّة والمواقف الخاصّة، كأن تكون آية السّيف مثلاً بصدد إعلان الحرب على فئة خاصّة من الكفّار، سواء كانت تشير إلى تلك الفئة الّتي أحاطت برسول الله فعلاً وقت نزول الآية، أو قصدت عنوانًا عامًّا يشمل كلّ كافرٍ تجهّز للعدوان على المسلمين وبلادهم من وأضمر الشّرّ والأذيّة لهم، دون سائر الكفّار ممّن لم يقاتل المسلمين في الدّين.

1- البقرة: 256.
2- يونس: 99.
3- الأعراف: 28.

خاتمة:

أَبْرَزَ البحث انعكاس صورتين متغايرتين لرسول الله ﷺ في التّراث الإسلامي، ونسب إلى ذلك سببَ الارتباك الحاصل في التصوّر الغربيّ واللّاإسلاميّ لرسول الله، فالازدواجيّة المدوّنة في التّراث كان لها أثرها في تباين نظرات الآخرين، فبعض تأثّر بالنّماذج السّوداويّة وبعضٌ تأثّر بالنّماذج المشرقة، وعلينا قبل مهاجمة المنتقدين والمشوّهين معالجة هذه الازدواجيّة، لإجلاء صورة رسول الله وتقديمها للعالَم بشكل واضح لا لَبْسَ فيه.

حاول البحث معالجة الصّورة النّبويّة بالاحتكام إلى العقل والأدلّة القرآنيّة، باعتبارها أصحّ الأدلّة النّقليّة وأوثقها، إضافةً لكون الدّليل القرآنيّ مقدّمًا على غيره من الأدلّة النّقليّة، فلو وقع التّعارض بين القرآن وغيره قُدّم القرآن بلا أدنى ريب.

وفي إطار معالجته خلص بنتيجة مفادها، استحالة تبنّي الصّورة السّوداويّة، لِمَا ينتج عن ذلك من نسبة العبث إلى ساحة الحكمة الإلهيّة، ولِمَا يحصل من تعارض واضح مع الأدلّة القرآنيّة الثّابتة قطعًا، والّتي لا تقبل النّسخ أو التّخصيص، لكونها تعبّر عن حقائق ثابتة لا عن أحكامٍ شرعيّةٍ تقبل التّغيّر والتّبدّل.

فالصّورة المعبّرة عن حقيقة رسول الله وشخصيّته العظيمة، إنّما هي الصّورة المشرقة، والّتي تتضّح من خلال النّماذج النّيّرة الّتي تمّ إيرادها في هذا البحث. ولا يشوب ذلك ما نسب إلى تلك الشّخصيّة الشّفّافة من مواقف وأقوال وسلوكيّات منافية، إذ إنّها إمّا محلّ رفضٍ، بعد مناقضتها لما هو معلومٌ قطعًا بواسطة الأدلة، أو هي خاصّة بظروف تبرّرها وتجعلها منسجمة مع الحكمة والعدل.

وفي الختام لا بدّ من كلمة: إنّ بقاء الصّورة السّوداوية دون معالجة أمر خطير للغاية، فهو يشوّه صورة النّبيّ، فيترك آثارًا سلبية على حاضر الدّعوة الإسلاميّة ومستقبلها، ويدمّر المجتمعات الإسلامية عبر ضياع الكثيرين من الشّباب المسلم بين متبنٍّ لها مجسّدٍ لما فيها من سلوكيات متطرّفة، وبين رافضٍ خارجٍ عن الدّين بسببها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1 - محمّد بن إسماعيل البّخاريّ، صحيح البّخاري، تحقيق الدّكتور مصطفى ديب البغا، دمشق -سوريا، دار ابن كثير، 1414هـ / 1993م، لا.ط.

2 - محمّد بن عليّ بن بابويه الصّدوق، عيون أخبار الرّضا، تحقيق الشّيخ حسين الأعلميّ، بيروت -لبنان، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، 1404 هـ/1984م، ط1.

3 - عليّ بن إبراهيم القمّيّ، تفسير القمّيّ، تحقيق السّيد طيب الموسويّ الجزائريّ، قم -إيران، مؤسّسة دار الكتاب، 1404هـ، ط3.

4 - محمّد بن إدريس الشّافعي، الأمّ، بيروت -لبنان، دار الفكر، 1983م، ط2.

5 - محمّد بن الحسن الطّوسيّ، المبسوط، طهران -إيران، المطبعة الحيدريّة، 1387 هـ.ش، لا.ط.

6 - الحسن بن يوسف الحِلّيّ، تحرير الأحكام، تحقيق إبراهيم البهادريّ، قم -إيران، مؤسّسة الإمام الصّادق، 1420 هـ، ط1.

7 - مسلم بن الحجّاج النّيسابوريّ، صحيح مسلم، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، القاهرة -مصر، دار إحياء الكتب العربيّة، لا.ت، لا.ط.

8 - محمّد حسن النّجفيّ، جواهر الكلام، تحقيق الشّيخ عباس القوچانيّ، طهران - إيران، دار الكتب الإسلاميّة، 1362 هـ.ش، ط3.

9 - محمّد بن جرير الطّبريّ، تاريخ الطّبريّ، بيروت – لبنان، مؤسّسة الأعلميّ، لا.ت، لا.ط.

10 - ابن سعد، الطّبقات الكبرى، بيروت – لبنان، دار صادر، لا.ت، لا.ط.

11 - أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبيّ، بيروت – لبنان، دار صادر، لا.ت، لا.ط.

12 - ابن تيميّة، المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة، تحقيق محمّد بن عبد الرحمن بن قاسم، السّعوديّة، طباعة محمّد بن عبد الرحمن بن قاسم، 1418 هـ، ط1.

13 - محمّد بن عيسى التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، تحقيق أحمد محمّد شاكر، بيروت – لبنان، دار الكتب العلميّة، لا.ت، لا.ط.

14 - محمّد بن يعقوب الكُلينيّ، الكافيّ، تحقيق غفاري عليّ اكبر، طهران – إيران، دار الكتب الإسلاميّة، 1407 هـ، ط4.

15 - سليمان بن أحمد الطّبرانيّ، المعجم الأوسط، تحقيق محمود الطحّان، الرياض – السّعوديّة، مكتبة التّعارف، 1405هـ / 1985م، لا.ط.

16 - محمّد بن إسحاق بن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمّد مصطفى الأعظميّ، المكتب الإسلاميّ، 1424هـ / 2003م ـ لا.ط.

17 - محمّد بن عمر الواقديّ، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، بيروت – لبنان، دار الأعلميّ، 1409 هـ/1989 م، ط3.

18 - الشّريف الرّضي، نهج البلاغة، شرح محمّد عبده، قم – إيران، دار الذّخائر، 1412 هـ، ط1.

19 - أحمد بن شعيب النّسائيّ، سنن النّسائي، تحقيق عبد الفتّاح أبو غدّة، بيروت – لبنان، مكتب المطبوعات الإسلاميّة، 1414هـ / 1994م، ط3.

20 - أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1414هـ / 1993م، لا.ط.

21 - أبو القاسم الخوئيّ، منهاج الصّالحين، قم -إيران، مهر، 1410 هـ، ط28.

22 - محمّد بن عليّ القزّاز، مجلّة مركز دراسات الكوفة، العراق، جامعة الكوفة، 2012 م، الإصدار25، مقالة بعنوان: أثر شخصيّة الرّسول الأعظم في الاستشراق الروسي.

23 - آمنة عليّ، المجلّة السّياسيّة والدّولية، بغداد – العراق، الجامعة المستنصرية، 2014م، الإصدار 25، مقالة بعنوان: أوروبا والإسلام.. اختلاف الرّؤى والمفاهيم العقائديّة وانعكاسه على الموقف الأوروبيّ من الإسلام.

24 - ويل ديورانت، قصّة الحضارة، تعريب زكي نجيب محمود، القاهرة – مصر، لجنة التّأليف والنّشر، 1965م، ط1.

25 - ويليام مونتجري واط، محمّد في مكّة، ترجمة عبد الرّحمن عبد الله الشّيخ، القاهرة – مصر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1415 هـ، لا.ط.

26 - حسين حسيني معدي، الرّسول ﷺ في عيون غربية منصفة، دمشق – سوريا، دار الكتاب العربيّ، 1419 هـ، ط1.

المصادر الإنكليزية

1- Jung,Carl Gustav: Collected Works, Bd. 18: The Symbolic Life,translated by R.F.C.Hull, Princeton University press, Princeton.

2- - PASCAL , BLAISE, THOUGHTS ON RELIGION AND PHILOSOPHY,ISAAC TAYLOR ESQ, GLASGOW,1838.